مأساة إبليس

نظرة جديدة الى موضوع قديم

صادق جلال العظم

لو حاولنا ان نحدد المشاعر الرئيسية التي عبّرت بها الاديان السامية الثلاثة عن علاقة الانسان بالاله، لوجدنا انها تنحصر في المحبة والخوف والكراهية : محبة الله ، والخوف من جبروته وعقابه ، وكره عدوه ابليس . عالج المفكرون الدينيون هذه المشاعر وافردوا لها الصفحات والكتب ، وكانت اقوالهم عن ابليس تتراوح بين المحاولات الجدية لمعرفة المكانة التي يحتلها في نظام الكون وتحديد علاقته بالاله واستقصاء الغاية التي وجد من اجلها، وبين مجرد الاستفاضة في شرح تلبيسه على البشر وتلقينهم التعاليم والتعاويذ المعروفة بغية ابعاده واتقاء شره . لا شك ان كل واحد منا يحمل في مخيلته صورة معروفة عن شخصية ابليس ورثها كجزء لا يتجزأ من ثقافته التقليدية وتربيته الدينية . ولا اجدني مضطرا لان استرسل طويلا في اعادة هذه الصورة الى الاذهان لانها معروفة جيدا لدى الجميع . كان ابليس من المقربين بين الملائكة وكان له شأن عظيم في نظام الملأ الاعلى ، الى ان عصى امر ربه فطرده من الجنة ولعنه لعنة ابدية ، فاصبح بذلك تجسيدا لكل ما هو شر وجمع في ذاته كافة الخصائص التي تنتفي عن الله . ونلاحظ هنا ان اسمه يدل على جوهره ، وهو « الابلاس » : اي اليأس التام من رحمة ربه ومن العودة الى الجنة ؛ ومن منا لا يعرف المثل الذي يضرب بأمل ابليس في الجنة ، دلالة على الامل الضائع كل الضياع . تدل كلمة ابليس عند الجميع على الدس والفتنة والوسوسة والافساد والعصيان وما اليه من الصفات الشنيعة والقبيحة التي جسدها خيال البشر في شخصية واحدة هي الشيطان . وعلى مر العصور اضفت مخيلة الانسان قوى كبيرة وقدرات عظيمة على ابليس : منها الطاقات الفكرية الخلاقة والقوى الفنية المبدعة ومنها القدرة على القيام بخوارق الاعمال وعجائب الافعال ، حتى اصبح ابليس يلي الاله مباشرة من حيث قوته وقدرته ومنجزاته. وقد الف الامام جمال الدين بن الجوزي كتابا سماه « تلبيس ابليس » ، احاط فيه بالطرق التي يلبس بها ابليس على البشر فيبعدهم عن طريق الصلاح . والطريف في هذا الكتاب انه لا يرسم لنا الصورة التقليدية الشائعة لشخصية ابليس فحسب وانما يسبغ عليه ، من حيث لا يعلم ولا يدري ، قوى خلاقة ومبدعة تثير الاعجاب والتقدير ؛ وعلى سبيل المثال يعزو ابن الجوزي معظم الحركات الدينية والفكرية الكبرى التي قامت في تاريخ الحضارة الاسلامية الى عمل ابليس ويجعله مسؤولا عنها ، فيحوله بذلك الى فيلسوف كبير ومتكلم قدير. يقول امامنا

المحترم ان السفسطائية ، والدهرية ، والطبائعية ، واديان الشرق الاقصى ، والمسيحية ، وعلم الكلام ، وفرقة المعتزلة هي من اعمال ابليس ونتيجة لتلبيسه على المفكرين والعلماء (« تلبيس ابليس » ، القاهرة ١٩٢٨ ، ص ٣٩–٤٤ الخ) . كما انه يرد حركة الخوارج والرافضة والزهد والتصوف الى تلبيسه على أئمة هؤلاء القوم بما فيهم ابو طالب المكي والامام الغزالي. نستنتج اذاً ان الفكرة الشائعة عن مقدرة ابليس لا تنحصر في مجرد اعتباره مصدر اغواء الناس عن سلوك الطريق القويم، بل تتعدى ذلك لتشمل قوى واسعة وقدرات عظيمة لو اخذناها بعين الجد لظهر لنا ان ابليس يسير قسما كبيرا من مجرى الاحداث ويعتبر مسؤولا عن معظم الحركات الفكرية والفنية والسياسية في تاريخ الحضارة .

بعد هذه المراجعة السريعة للصورة التقليدية الشائعة عن ابليس وسلطانه اريد ان ابيّن ان هدف هذه الدراسة هو اعادة النظر في قصة ابليس ودراسة شخصيته وموقفه ومسؤوليته ومصيره على ضوء جديد يختلف عما الفناه من عقائد وافكار سيطرت على تصوّرنا لهذا المخلوق. اما المراجع الاولية التي سأعتمد عليها فهي الآيات القرآنية التي تروي لنا قصة ابليس وسيرته ، وبعض المؤلفات التي تركها لنا المفكرون المسلمون الذين اهتموا بابليس وشخصيته وعصيانه ووظيفته ونهايته .

ولكن قبل ان ادخل في صلب الموضوع اريد ان اوضح بأن بحثي يدور في اطار معين لا يجوز الابتعاد عنه على الاطلاق ، الا وهو اطار التفكير الميثولوجي — الديني الناتج عن خيال الانسان الاسطوري وملكاته الخرافية . انني لا اريد معالجة قصة ابليس باعتبارها موضوعا يدخل ضمن نطاق الايمان الديني الصرف ، ولا اريد ان اتكلم عنه باعتباره كائنا موجودا وحقيقيا، وانما اريد دراسة شخصيته باعتبارها شخصية ميثولوجية ابدعتها ملكة الانسان الخرافية وطورها وضخمها خياله الخصب . عند التفكير بموضوع ابليس اجد نفسي واقفا وجها لوجه امام تراث ميثولوجي — ديني عريق في قدمه وتاريخه . وجل ما اريد تحقيقه هو دراسة احدى الشخصيات الرئيسية التي انحدرت الينا مع هذا التراث شرط ان نبقى ضمن حدود المعطيات البديهية للتفكير الميثولوجي وبدون ان نخرج عن مسلماته الاولية . يقول كاسيرر في تحديده لعالم الاسطورة ، وهو العالم الذي حصرت نفسي فيه في هذا البحث ، ما يلي :

« فعالم الاسطورة عالم درامي — عالم أعمال وقدرات وقوى متصارعة ، والاسطورة ترى هذا الاصطدام بين تلك القوى في كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة . والادراك الاسطوري مفعم دائما بهذه الخصائص العاطفيّة ، فكل ما يرى او يحس يحاط بجو خاص — جو من الفرح أو الحزن أو العذاب أو الهياج والاستبشار والغمّ. في حال الاسطورة لا نستطيع ان نتحدث عن « الاشياء» باعتبارها مادة ميتة او هامدة ، فكل شيء ثمة خيّر او شرير ، صديق او عدو ، مألوف او غريب ، جذاب معجب او منفر متوعد » . « مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية» ، ترجمة احسان عباس ، بيروت ١٩٦١ ، ص ١٤٧–١٤٨) .

اصرار على التوحيد في اصفى معانيه

اذا رجعنا الى المصادر التي قلنا اننا سنعتمدها في دراستنا لقصة ابليس وجدنا ان سيرته تبدأ بوصف لمكانته المرموقة في نظـام الملأ الاعلى وعرض للمنزلة الرفيعة التي كان يتمتع بها بين الملائكة قبل طرده من الجنة . يقول الامام عز الدين المقدسي في كتـابه « تفليس ابليس » مخاطبا الشيطان :

« وأنت الذي خلقك الله بيد قدرته . وأطلعك على بدائع صنعته . ودعاك الى حضرة قربته . والبسك خلع توحيده. وتوجك بتاج تقديسه وتحميده. وجعلك تجول في مجال ملائكته . يقتبسون من نورك. ويستأنسون بحضورك . ويهتدون بعلمك . ويقتدون بعملك . فما برحت في الملأ الأعلى . تشرب بالكأس الأملى . وتتلذذ بالخطاب الأحلى . طالما كنت للملائكة معلمًا وعلى الكروبيين مقدمًا » . (القاهرة ١٩٠٦ ، ص ١١) .

ومن ثم تصف لنا الآيات القرآنية ماذا حدث لابليس وكيف عصى ربه فلعنه الى يوم الدين وطرده من الجنة :

« واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمـاء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال اني اعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم . قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما انبأهم بأسمائهم قال الم اقل لكم اني اعلم غيب السموات والارض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » . (البقرة ٣٠ – ٣٤) .

« واذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، فـاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم اجمعون ، الا ابليس ابى ان يكون مع الساجدين ، قال يا ابليس مالك الا تكون مع الساجدين ، قال لم اكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ، قال فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين ، قال ربّ فانظرني الى يوم يبعثون . قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم،قال رب بما اغويتني لازينن لهم في الارض ولأغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين». (الحجر ٢٨ – ٤١) .

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك الا تسجد اذ امرتك ، قال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. قال فاهبط منها فما يكون لك ان تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين ، قال انظرني الى يوم يبعثون ، قال انك من المنظرين ، قـال فبما اغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد اكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم اجمعين » . (الأعراف ١٠ – ١٧) .

تبدو قصة ابليس ، كما وردت في هذه الآيات ، بسيطة في ظاهرهـا ؛ لقد امره الله ان يقع ساجدا لآدم فرفض وكان ما كان من شأنه . غير انه لو اردنا ان نتجاوز هذه النظرة السطحية الى مشكلة ابليس لرجعنا الى فكرة هامة قال بها بعض العلمـاء المسلمين ، وهي التمييز بين الامر الالهي والمشيئة او الارادة الالهية . فالامر بطبيعة الحال اما ان يطـاع وينفذ واما ان يعصى ، وللمأمور الخيار في ذلك . اما المشيئة الالهية فلا تنطبق عليها مثل هذه الاعتبارات لانها بطبيعتها لا تردّ ، وكل ما تتعلق به المشيئة الالهية واقع بالضرورة.

لقد شاء الله وجود اشياء كثيرة غير انه امر عباده بالابتعاد عنها ، كما انه امرهم باشياء ولكنه ارادهم انيحققوا اشياء اخرى . لذلك باستطاعتنا القول بان الله امر ابليس بالسجود لآدم ولكنه شاء له ان يعصي الامر ، ولو شاء الله لابليس ان يقع ساجدا لوقع ساجدا لتوه اذ لا حول ولا قوة للعبد على رد المشيئة الالهية. اذا نظرنا الى الامور من هذه الزاوية بامكاننا ان نعتبر الامر والنهي اشياء طارئة وعرضية اذا قيست بسرمدية المشيئة الربانية وقدم الذات الالهية .

عندما نعيد النظر في الآيات القرآنية التي اثبتّها في الصفحات السابقة يتبين لنا ان الله اراد للملائكة « ان يسبحوا بحمده ويقدسوا له »، ويقول الطبري في تفسيره الشهير ان « التسبيح والتقديس » هما توحيد الله وتنزيهه وتبرئته مما يضيفه اليه اهل الشرك به (طبعة دار المعارف بمصر، ج ١ ، ص ٤٧٥) . بعبارة اخرى، يشكل التوحيد واجب الملائكة الاول والمطلق نحو خالقهم ، ولذلك نراهم منغمسين في ادائه بكل كيانهم ووجودهم . اما بقية الواجبات المفروضة على الملأ الاعلى فتعتبر عرضية وثانوية بالنسبة للواجب المطلق الذي ينبع من المشيئة الالهية نفسها .

بعد ان بينا الفارق بين الواجب المطلق نحو الله وبين واجبات الطاعة الجزئية لاوامر الرب بامكاننا ان نميز الامور التالية في جحود ابليس :

اولا ، لا شك ان ابليس خالف الامر الالهي عندما رفض السجود لآدم ، غير انه كان منسجما كل الانسجام مع المشيئة الالهية ومع واجبه المطلق نحو ربه .

ثانيا ، لو وقع ابليس ساجدا لآدم لخرج عن حقيقة التوحيد وعصى واجبه المطلق نحو معبوده. اراد الله للملائكة ان يقدسوه وان يسبحوا باسمه ، لذلك كان السجود لآدم وقوعا في ما يضيفه أهل الشرك الى الذات الصمدية مما هي منزّهة عنه ، اذ ان السجود لغير الله لا يجوز على الاطلاق لانه شرك به . في الواقع يثير اختيار ابليس سؤالا هاما جدا هو : هل تكمن الطاعة الحقيقية في الاذعان للامر او في الخضوع للمشيئة ؟ هل يكمن الصلاح في الانصياع للواجب المطلق ام لواجبات الطاعة الجزئية ؟ لو كان الجواب على هذا السؤال بسيطا وواضحا لما وجدت المأساة في حياة الانسان ، ولما وجد ابليس نفسه في هذه المحنة ، ولما وقع بين براثن الامر والمشيئة . نستنتج اذاً ان موقف ابليس يمثل الاصرار المطلق على التوحيد في اصفى معانيه وانقى تجلياته ، وكأن لسان حال ابليس يقول : « جبين سجد للاحد لا يذلّ في الوجود لاحد » . (« تفليس »، ص ١٥) . وعبر شهيد الصوفية ابو المغيث الحلاج عن هذه الحقيقة في « كتاب الطواسين » بالكلمات التالية :

« التقى موسى وابليس على عقبة الطور ، فقال له « يا بليس ! ما منعك عن السجود ؟ » فقال « منعني الدعوى بمعبود واحد، ولو سجدت له لكنت مثلك ، فانك نوديت مرة واحدة« انظر الى الجبل » فنظرت،

ونوديت انا الف مرة ان اسجد فما سجدت لدعواي بمعناي » (باريس ١٩١٣) .

ثالثا ، برر ابليس رفضه السجود لآدم تبريرا منطقيا واضحا اذ قال : « انا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين . » وبالاضافة الى ذلك تتضمن الآيات القرآنية التي اشرت اليها تبريرا خفيا لرفض ابليس ، وهو معرفته المسبقة بان آدم وذريته سيعيثون في الارض فسادا ويسفكون الدماء ، وكان هذا شعور الملائكة اجمعين عندما قالوا لربهم : « اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . . . » اي كانت الملائكة ، بما فيهم ابليس ، على علم بما سيرتكبه آدم وذريته من الكبائر والمعاصي فاستكبرت واستعظمت ان يخلق الله من يعصيه ويسفك الدماء .

عند امعان النظر بحجة ابليس الاولى التي تتألف من مفاضلته بين جوهره (النار) وبين جوهر آدم (الصلصال) نجد انها لم تكن استكبارا وفخارا بقدر ما كانت استذكارا لحقيقة اساسية شاءها الله واوجدها على ما هي عليه . وهذه الحقيقة هي ان الله لم يخلق الطبائع على درجة واحدة من السمو والكمال وانما ميّز بينها ، ليس من حيث خصائصها الطبيعية والمادية فحسب ، بل من حيث درجات كمالها ورفعتها ايضا . وبناء عليه ففي امكاننا ان نصنف الكائنات والانواع في نظام تقديري معين يبدأ بالكمال المطلق ذاته ثم يتدرج بالانواع هبوطا ، كل حسب درجة كماله التي اسبغها الله عليه ، الى ان نقترب من العدم باعتباره الحد الذي نقف عنده . ولا ريب ان النار بطبيعتها وجوهرها تحتل مرتبة اسمى وارفع في هذا الترتيب من المرتبة التي يحتلها الصلصال . بعبارة اخرى تنطوي مفاضلة ابليس بين جوهره وبين جوهر آدم على نظرة فلسفية معينة لنظام الكون وترتيب الطبائع وفقا لدرجات الكمال التي تتصف بها . لذلك كان ابليس على حق في جوابه ، لان الخالق جعل الاشياء على ما هي عليه من درجات الكمال والسمو ، وامر السجود لآدم يشكل مخالفة صريحة لهذا النظام وخروجا على الترتيب الذي شاءه الله واوجده . فاذا كان جوهر ابليس ارفع في سلم الكمالات من جوهر آدم فلن تستطيع النار عندئذ ان تذل للصلصال الا بالسير في اتجاه مضادّ لطبيعتها ومنافٍ لدرجة الكمال التي اسبغها الله عليها ، وهذا امر محال ما لم يطرأ تحوّل جذري على المشيئة الالهية فتتغير ترتيب الطبائع عما كانت عليه منذ ان اوجدها الله . ولقد امر الله ابليس بشيء وشاء له تحقيق شيء آخر ، لذلك سنرى فيما بعد ان امر السجود لم يكن امر مشيئة وانما كان امر ابتلاء . ومن الطريف ان نلاحظ بهذا الصدد ان التحول الذي لحق بابليس بعد طرده من الجنة لم يمس جوهره وانما جرى على صفاته واحواله فتشوهت صورته واصبح لعينا رجيما . عبّر الحلاج بطريقته الخاصة عن هذه الحقيقة في المحاورة التي مر ذكرها بين موسى وابليس ، حيث يبيّن ابليس لكليم الله ان التغير الذي اصابه والتشويه الذي نزل به كانا في الاحوال الظاهرة والزائلة فحسب ولم يمسا جوهره الدائم ومعرفته الثابتة لاحكام المشيئة الالهية . قال موسى لابليس:

– « تركت الامر » . فأجاب ابليس : « كان ذلك ابتلاء لا امرا » . فقال له موسى : « لاجرم قد غيّر صورتك » . فأجاب ابليس : « يا موسى ذا وذا تلبيس والحال لا معوّل عليه فانه يحول . لكن المعرفة صحيحة كما كانت ، وما تغيرت وان الشخص قد تغير » («طاسين الازل والالتباس») .

اما الحجة الثانية التي برر بها ابليس رفضه السجود لآدم فكانت تستند الى علم الملائكة بان آدم وذريته سيفسدون في الارض وسيسفكون الدماء، فكيف يسجد من كان غارقا في التوحيد والتسبيح والتقديس ومن كان امام الملائكة وخطيب الكروبيين لمخلوق سيفسد في الارض ويسفك الدماء ؟ يلخص الحلاج هذه الناحية من الموضوع بقوله :

قال الله لابليس : « لا تسجد ؟ يا ايها المهين» ! فأجاب ابليس : « محب والمحب مهين، انك تقول «مهين » وانا قرأت في كتاب مبين ، ما يحرّ عليّ يا ذا القوة المتين ، كيف اذلّ له وقد خلقتني من نار وخلقته من طين ، وهما ضدّان لا يتوافقان واني في الخدمة اقدم ، وفي الفضل اعظم ، وفي العلم اعلم وفي العمر اتم ». (المصدر نفسه).

نستخلص اذاً ان قصة ابليس كما وردت في الآيات القرآنية التي ذكرناها ليست بالبساطة التي كنا نتخيلها ، انها ليست قصة الصراع بين الخير والشر والحق والباطل . وقع ابليس بين شقي الرحى ، رحى المشيئة من ناحية ورحى الامر من ناحية اخرى ، فكان عليه ان يختار اختيارا مصيريا بين واجبه المطلق في التقديس والتوحيد والتسبيح وبين واجبات الطاعة الجزئية التي امره بها الله ، فجاءت محنته مفعمة بالعناصر الدرامية والمأساوية .

قبل ان استمر في استخلاص النتائج المترتبة على هذا التصور لمحنة ابليس، اجدني مضطرا للرد على الدعوى التي قال بها عباس محمود العقاد في كتابه «ابليس» (دار الهلال بالقاهرة) . تتلخص دعوى العقاد في محاولة للدفاع عن النظرة التقليدية السطحية الى شخصية ابليس واعتباره مجرد كائن عصى امر ربه فطرده من الجنة . لذلك يرفض العقاد الاعتراف بمحنة ابليس ويقول بوجوب سجوده لآدم. وعند تمحيص هذا الرأي نجد انه يستند الى حجتين: اولا ، وجب على الملائكة السجود لآدم لانه خير منهم ، فهو قادر على فعل الخير والشر بينما الملائكة قادرة على فعل الخير فقط وهي بمنجاة من غواية الشر ولا توصف به (ص ١٠–١١) . ثانيا ، حق السجود لآدم لان الله علمه الاسماء كلها ولم يعلمها للملائكة، مما جعله اسمى مرتبة منها (ص ١٤٨) . وساردّ على كل من هاتين الحجتين على حدة .

يبدو لي ان دعوى العقاد القائلة بفضل آدم على الملائكة لانه عرضة للخير والشر بينما هي بمنجاة من غوايته دعوى فاسدة من اساسها للاسباب التالية: اولا ، تبرهن قصة ابليس انه حتى سادة الملائكة والمقربين منهم ليسوا بمنجاة من غواية الشر والا لما عصى ابليس ربه وانتهى الى بئس المصير . نستنتج اذاً ان الملائكة عرضة للخير والشر وهي ، كالانسان ، مطالبة بالخيرات وممتحنة بالشرور، مما ينفي فضل آدم على الملائكة وبالتالي يلغي ضرورة السجود له. ثانيا ، لو افترضنا جدلا مع العقاد ان الملائكة ليست عرضة للخير والشر وانما

هي تفعل الخير دائماً بطبيعتها وجوهرها، فهل يعني ذلك ان آدم افضل منها ؟ لنطرح السؤال بصيغة اعم واشمل: ايهما افضل، الكائنات التي تصنع الخير احيانا وتصنع الشر احيانا اخرى فتفسد في الارض وتسفك الدماء، ام الكائنات التي لا تصنع الا الخير بصورة مستمرة ودائمة؟ اعتقد ان الجواب على هذا السؤال واضح كل الوضوح ولا يتطلب مزيداً من النقاش، بدليل ان تصورنا الاخلاقي للارادة الفاضلة في اسمى مراتبها يقول بانها الارادة التي تصنع الخير باستمرار وبدون اي عناء او جهد، لان صنع الخير اصبح من جوهرها ومعدنها. اما الارادة الناقصة فهي لا تزال تصارع وتجاهد للتغلب على غواية الشر لها، محاولة بذلك الاقتراب من الارادة الفاضلة باعتبارها مثلها الاعلى. واذا كانت الملائكة، وفقا لدعوى العقاد، بمنجاة من غواية الشر، فلا شك ان الله انعم عليها بارادة فاضلة تجعلها اسمى وارفع بدرجات من آدم وذريته. عندما قال الله للملائكة: «اني جاعل في الارض خليفة»، استكبرت الملائكة الامر واستعظمته بدليل جوابها: «اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟». فهل يريد العقاد ان يجعل من قدرة آدم على الافساد وسفك الدماء مصدرا لسموه على الملائكة ؟

ننتقل الآن الى الرد على حجة العقاد الثانية التي تدّعي بان سجود الملائكة حق لآدم لان الله علمه الاسماء كلها ولم يعلمها للملائكة. بينا في السابق ان سمو ابليس على آدم كان سموا بالطبيعة والجوهر وليس سموا في الاحوال العارضة الزائلة كالتي اكتسبها آدم عندما علمه الله الاسماء كلها. بعبارة اخرى، لا يؤلف علم آدم بالاسماء كلها خاصة من خصائصه الجوهرية المميزة، ولا شك انه كان باستطاعة الملائكة تعلم الاسماء لو شاء لها الله ذلك. نرى اذاً ان علم آدم بالاسماء كلها كان علما طارئاً انعم الله عليه به ليغري الملائكة على السجود.

النواحي المأساوية في شخصيته وموقفه

لننتقل الآن الى محنة ابليس الناتجة عن تناقض الامر والمشيئة. عبر ابو المغيث الحلاج عن محنة ابليس بايجاز رائع بقوله:

«لمّا قيل لابليس: «اسجد لآدم !» خاطب الحقّ: «ارفع شرف السجود عن سري الا لك حتى اسجد له ؟ ان كنت امرتني قد نهيتني». («كتاب الطواسين»، ص ١١-١٢).

وسأحاول الآن ان احدد عناصر المأساة في محنة ابليس وان ابرز نواحيها المتعددة بقدر ما يسمح لي به الموضوع من الدقة والوضوح. لذلك سأعتمد مرجعين رئيسيين هما: مسرح سوفوكليس من التراث الادبي اليوناني الغربي، وقصة النبي ابراهيم من التراث الديني السامي. ولا حاجة لي في ان اطيل الكلام في قصة ابراهيم: امر ابراهيم ان يذبح ولده اسحق (او اسماعيل) ولما همّ بذلك فداه الله «بذبح عظيم». وهنا اقف برهة لاشير الى دراسة

كير كجورد الشهيرة لقصة ابراهيم في كتابه « الخوف والقشعريرة » لابين اني اعتمدت في هذا القسم من بحثي الخطوط العريضة لتأويله لتجربة ابراهيم . ولكن هذا لا يمنع وجود بعض الخلافات الاساسية بين الآراء التي ساوردها حول هذا الموضوع وبين نظرة كير كجورد الخاصة الى شخصية ابراهيم .

مما لا ريب فيه ان قصة ابراهيم تحتوي على امكانيات مأساوية عنيفة وتتضمن كثيرا من المقومات الرئيسية للتراجيديا ، ولكنه لا يحق لنا ، في اي حال من الاحوال، ان نعتبرها مأساة حقيقية، لانها تنتهي نهاية سعيدة متفائلة يرتاح لها الجميع. فالشعور الذي تخلّفه فينا قصة ابراهيم يختلف اختلافا تاما ونوعيا عن الشعور الذي تخلّفه فينا قصة الملك اوديب مثلا.

توجد اعتبارات عديدة تجعل من محنة ابليس مأساة حقيقية ، وساوجه اليها الانتباه واحدة تلو الاخرى :

اولا ، كثيرا ما تقع المأساة في ساعة الازمات الكبرى والهزات العنيفة التي تقلب الاوضاع السائدة وتزلزل اركان الانظمة القائمة وتهز القيم المسيطرة ، فيشعر الذين يمرون بالتجربة بان كيانهم السابق ونمط وجودهم المألوف قد وضعا موضع التساؤل وان العالم الذي يحيط بهم اصبح على وشك الانهيار بمقوماته المادية والروحية والاخلاقية . انعم الله على ابراهيم « بغلام حليم » « فلما بلغ معه السعي » قال له : « يا بنيّ اني ارى في المنام اني اذبحك... ». امر ابراهيم بذبح ولده تقدمة منه الى الله، فقلب هذا الامر المعايير والمقاييس وصدع القيم واضاع الملامح وخلط القسمات، اذ على الاب الرحوم العطوف ان يقتل ولده اشنع قتلة عن سابق تصميم وتدبير ، وبكل هدوء وخشوع . كان ابليس للملائكة معلما وعلى الكروبيين مقدما ، كان ، كما يقول الامام المقدسي ، ساكن البال مستقيم الحال صالح الفعال، ولكن بينما هو في حضرة الشهود اتى الله بآدم الى الوجود وامر له بالسجود، (« تفليس » ص ١٥) ، فاهتز نظام الملأ الاعلى وانقلبت المعايير والموازين مرة اخرى اذ على الجبين الذي لم يسجد الا للاحد ان يذل بالسجود لبشر، وعلى معلم الملائكة في التوحيد ان يجحد التقديس والتسبيح ، وعلى النار ان تخضع للصلصال. ولكن ابليس رفض السجود فلعن الى يوم الدين . بعبارة اخرى، تعرض علينا قصة جحود ابليس وطرده وهو في قمة عزه ، ومن ثم ترينا اياه في حضيض بؤسه وشقاوته — شأنه في ذلك شأن القصة اليونانية القديمة التي تعرض علينا الملك اوديب في ذروة مجده وسلطانه ، ومن ثم ترينا اياه ضالا في متاهات اليأس والعذاب والالم . لقد اضحى كل منهما منبوذا مشوها مكروها بعد ان هوى الى ادنى مهاوي الشقاء فأصبح كل من كان عونا لهما عونا عليهما .

ثانيا ، اذا رجعنا الى مسرحية « انتيجونا » نجد ان المأساة التي انتهت اليها البطلة ناتجة عن التناقض الجوهري القائم بين ما تمثله انتيجونا من ناحية وما يمثله كريون ملك طيبة من

ناحية اخرى . كانت انتيجونا مصممة تصميما مطلقا ان تدفن جثمان اخيها القتيل مهما كلفها الامر ، وكان دافعها الى ذلك حبها العظيم لاخيها وايمانها الذي لا يتزعزع بضرورة تنفيذ مشيئة السماء القاضية بدفن الموتى . تقول انتيجونا لاختها اسمينا :

« اما انا فمواراة اخي ، فاذا اديت هذا الواجب فيا اجمل بي ان اموت ولئن متّ فانما انا صديقة لحقت بصديقها . سأؤدي واجبا عدلا ملؤه التقوى ، لان الوقت الذي ساروق فيه الى الموتى اطول من الوقت الذي سأروق فيه الى الاحياء ، فسأكون قرينته ابد الدهر » . (طه حسين ، « من الادب التمثيلي اليوناني ، سوفوكليس » ، ص ١٣٨) .

ومن ناحية اخرى نجد ان الملك كريون كان مدفوعا بعاطفة نبيلة ووطنية لما امر بانزال العقاب بالاخ الذي حمل السلاح ضد مدينته وقتل على ابوابها . كما انه كان صادقا في محاولته لاحلال حكم القانون واعادة النظام الى مدينة طيبة بعد الفوضى التي عصفت بها . لذلك كان لزاما عليه ان يتمسك بالحزم ويتسلح بالشدة ويصر على تنفيذ اوامره وارشاداته بحذافيرها وبكل تفاصيلها ، وان يتوعد كل من تسول له نفسه مخالفة النظام باشد انواع العقاب . وجميع هذه الاجراءات امور طبيعية وضرورية في مدينة عانت من ويلات الحرب والوباء والفوضى ما عانته مدينة طيبة عندما تسلم كريون مقاليد حكمها ، وكانت النتيجة ذلك الصدام المفجع بين متطلبات السلطة الزمنية وضروراتها ، متمثلة في شخصية كريون ، وبين متطلبات السماء واوامر الآلهة ، متمثلة في شخصية انتيجونا ؛ وحصد الجميع الموت واليأس والمأساة . عندما يسأل كريون انتيجونا : « وكيف جرؤت على مخالفة هذا الامر ؟ » تجيب :

« ذلك لانه لم يصدر عن « ذوس » ولا عن « العدل » ...، ولا عن غيرهما من الآلهة الذين يشرّعون للناس قوانينهم . وما ارى ان امورك قد بلغت من القوة بحيث تجعل القوانين التي تصدر عن رجل احقّ بالطاعة والاذعان من القوانين التي تصدر عن الآلهة الخالدين ، تلك القوانين التي لم تكتب ، والتي ليس الى محوها من سبيل » . (المصدر نفسه ، ص ١٥١) .

اذا نظرنا الى قصة ابراهيم من هذه الزاوية تبين لنا انها تحتوي على تناقض شبيه بالتناقض الذي صوره سوفوكليس في مسرحيته المذكورة . لا بد ان ابراهيم عانى الامرين من التناقض بين احترامه لمتطلبات الابوة العاطفية وواجباتها الاخلاقية من جهة وبين ضرورة الاذعان للامر الالهي القاضي بذبح ابنه من جهة اخرى . كان ابراهيم يحب ولده اكثر مما يحب نفسه وكان يقوم بواجبات الابوة خير قيام ، ولكن ما عساه ان يفعل اذا تعارض هذا الحب وتعارضت واجبات الابوة مع متطلبات الطاعة التامة لاوامر الاله ومع واجباته الدينية المطلقة تجاه ربه ؟ الحق يقال ان محنة ابراهيم مشحونة بعناصر المأساة وببوادر توترها الى درجة اعظم من مسرحية انتيجونا ، لان التناقض الاساسي في مسرحية سوفوكليس كان بين السلطة الزمنية وبين اوامر السماء الازلية ، ولكل واحد من طرفي هذا التناقض مصدره المستقل عن مصدر الآخر . اما بالنسبة لابراهيم فان طرفي التناقض

يعودان في نهاية الامر الى مصدر واحد هو الله . عندما خضعت انتيجونا لاوامر السماء خالفت بذلك اوامر السلطات الزمنية ، بينما حين خضع ابراهيم لامر ربه ووضع المديةعلى عنق ولده خالف بذلك القواعد الاخلاقية المطلقة التيانزلها الله على عباده عن كيفيةمعاملة الآباء للابناء والابناء للآباء. بعبارة اخرى، لما اطاع ابراهيم ربه من الناحية الدينية اضطر لان يعصيه من الناحية الاخلاقية .

ولا تختلف محنة ابليس ، من حيث النوعية ، عن محنة كل من انتيجونا وابراهيم. كان امامه الامر الالهي المباشر بان يقع ساجدا لآدم ، وفي الحين ذاته كانت امامه متطلبات المشيئة الالهية الداعية للتوحيد والتقديس والتسبيح والتي لا تسمح بالسجود لاحد سوى للذات الصمدية . فأذعن ابليس لمتطلبات المشيئة وعصى بذلك امر السجود، فطرد ولعن وكتب عليه اليأس المطلق من العودة الى الجنة . ولكن مأساة ابليس كانت اعظموافجع من محنة ابراهيم (ولا نقول مأساة ابراهيم بسبب ذلك الكبش الذي ذبحه عوضا عن ولده)، لان التناقضالذي واجهه ابليس لم يكن بينواجبات الطاعة الدينية وبينواجبات الطاعة الاخلاقية ، بل كان بين واجبات الطاعة للاوامر الالهية فحسب . بعبارة اخرى: واجه ابليس الرب وهو يناقض نفسه بصورة مباشرة ومفضوحة ، فذهب ضحية هذا التناقض وضحية الموقف الذي اختاره ووقفه.

من ينظر الى شخصية انتيجونا بشيء من الدقة والعمق لا يمكن ان يرى فيها مجرد البطلة التقليدية التي تمثل كل ما يوصف بالخير والحق والجمال بينما يمثل خصمها نقيض هذه الخصال . كما ان من يفهم قصة ابراهيم بابعادها الانسانية لا يمكنه ان يرى في محاولته ذبح ولده مجرد جريمة نكراء تتنافى مع ابسط بديهيات الانسانية والاخلاق. وكذلك الامر بالنسبة لابليس، لان من يدقق النظر في محنته لن يرى فيجحوده امر السجود مجرد تجسيد للعصيان والشر والخطيئة . اذا نظرنا الى الامور من زاوية معينة فاننا لا نشك بان ابليس كان عاصيا وجاحدا ، ولكن من ناحية اخرى يجب الا ننسى ان جحوده كان اعظم تقديس للذات الالهية واكبر مثل على التمسك بحقيقة التوحيد . وقع ابليس في الاثم عندما جادل ربه ، ولكن الله هو الذي سمح له بذلك واصغى له عندما قال : « انا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين» . وهنا تتجلى شخصية ابليس المأساوية باعتبارها مزيجا من البراءة والاثم ، من الجمال والقبح ، من الحق والباطل ، من الخير والشر . انهيتصف بهذه الصفات مجتمعة ، شأنه في ذلك شأن الابطال المأساويين الذين عرفناهم من خلال التراجيديات الكبرى في تاريخ الادب ، اذ كان على ابليس ان يرفض السجود تماما كما كان على اوريستيز ان يقتل امه وعلى هملت ان يقتل عمه ، وكان عليه ان يتحمل مثلهم البلاء والالم واليأس الناتج عن فعله . وجميع هؤلاء الابطال وجدوا انفسهم بين شقي الرحى .

فهم محقون من ناحية وغير محقين من ناحية اخرى ، ولا يتحمل هذا التوتر المأساوي الا اشدهم بأسا واصلبهم عودا ؛ اي لا يتحمله سوى من كان معدنهم من معدن الابطال .

ثالثا ، ستتضح لنا الامور بصورة افضل لو ميزنا بين نوعين من المأساة، «مأساةالغربة» (Tragedy of Alienation)و« مأساة المصير او القدر »(Tragedy of Fate) . والموضوع الذي اريد ان اطرحه الآن هو : ان محنة ابليس تمثل بكل جلاء كلا النوعين من المأساة . ينتج البلاء في مأساة الغربة بسبب الانفصال عن « وضع معين » كان البطل يشارك فيه قبلا ولكنه يجد نفسه غريبا عنه الآن، وتعطينا اعمال ميلتون ودستويفسكي وكافكا وكتاب كامو « الغريب » امثلة واضحة على مأساة الغربة . اما بالنسبة لغربة ابليس فقد قال ابو المغيث الحلاج ، في «الطواسين» ، على لسان ابليس ، في وصفها ووصف ويلاتها ما يلي :

« افردني ، اوحدني ، حيّرني طردني لئلا اختلط مع المخلصين، مانعني عن الاغيار لغيرتي ، غيرني لحيرتي، وحيّرني لغربتي ، حرّمني لصحبتي ، قبحني لمدحتي ، احرمني لهجرتي ، هجرني لمكاشفتي ، كشفني لوصلتي ... » .

وكتب الامام المقدسي على لسان ابليس الاسطر التالية في وصف غربته وشقائه :

« ثم لكمال شقوتي سألت الانظار . فصرت اضحوكة للحضار . اذوب اذا سمعت الذاكرين . واتمزق اذا رأيت الشاكرين . واحد افر من ظله . وواحد اهرب من زكيّ فعله . وواحد تحرقني انفاسه . وواحد يعجزني مراسه ... اذا تاب التائب قصم ظهري . واذا رجع الآيب نقص عمري . كل ما بنيته مع العاصي في سنة . تهدمه التوبة في سنة . فانا في ويل لا يزول . وحرب لا تحول . وحزن شرحه يطول » (« تفليس » ص ٣٦و٣٧) .

اما اذا رجعنا الى الوصف الرائع الذي تركه لنا ابو حيان التوحيدي لحال الغربة فاننا نجد انه ينطبق كل الانطباق على حال ابليس ، قال ابو حيان :

« يا هذا ! الغريب من غربت شمس جماله، واغترب عن حبيبه وعذاله، واغرب في اقواله وافعاله ...الغريب من نطق وصفه بالمحنة بعد المحنة ، ودلّ عنوانه على الفتنة عقيب الفتنة ، وبانت حقيقته فيه في الفينة حدّ الفينة ... يا رحمتا للغريب ! طال سفره من غير قدوم ، وطال بلاؤه من غير ذنب، واشتد ضرره من غير تقصير ، وعظم عناؤه من غير جدوى ! » (« الاشارات الالهية »، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٨٠، ٨١، ٨٢).

تعتبر مسرحية « الملك أوديب » ومسرحية « روميو وجولييت » لشيكسبير من أروع ما كتب حول مأساة المصير . وكل من قرأ مسرحية سوفوكليس المذكورة يعرف كيف أخذ القدر مجراه المحتوم وصدقت جميع النبؤات ، وكيف فشلت جميع المساعي التي قام بها أوديب وجوكاستا ليفلتا من مصيرهما المظلم . اذا نظرنا الى محنة ابليس من هذه الزاوية تبين لنا انه كان مسيرا في جميع خطواته وفقا للقدر الذي كتبه الله عليه ، شأنه في ذلك شأن كل ما هو كائن في ملكه ، بدليل الحديث القدسي القائل :

« ان اول ما خلق الله القلم ، فقال له اكتب، قال يارب وما اكتب ، قال مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة ، من مات على غير هذا فليس مني » (الشيخ محمد المدني ، « الاتحافات السنية في الاحاديث القدسية » ، حيدر اباد ١٣٥٨ هـ ، ص ٨٧) .

وعبر أبو المغيث الحلاج عن هذه الحقيقة بانشاده عن ابليس :

القاه في اليمّ مكتوفا فقال اياك اياك ان تبتل بالمـــاء

بعبارة اخرى، كان ابليس خاضعا في احواله واختياره وطرده ولعنته وتشويهه الى احكام الارادة الالهية ولامر قضائه الذي لا يرد ؛ كان مجبورا بحكمته ومقهورا بمشيئته بدليل قوله تعالى : « انا كل شيء خلقناه بقدر » . وكتب ابو المغيث الحلاج الكلمات التالية في « الطواسين » حول خضوع ابليس لقضائه وقدره :

قال الحقّ سبحانه لابليس : « الاختيار لي لا لك » فاجاب ابليس : « الاختيارات كلها واختياري لك ، قد اخترت لي يا بديع وان منعتني عن سجوده فانت المنيع وان اخطأت في المقال فانت السميع وان اردت ان اسجد له فانا المطيع ، لا اعرف في العارفين اعرف بك مني ، لا تلمني فاللوم مني بعيد ، واجر سيدي فاني وحيد » .

هنا يجب ان نلفت النظر الى انه ليس كل من جـار عليه القدر وسحقه المصير المحتوم يصبح بذلك بطلا ، وليس كل من وجد نفسه في محنة مفجعة كمحنة ابليس وانتيجونا وابراهيم يصبح بذلك شخصية مأساوية . لأن الأمر يتوقف الى حد كبير على نوعية رد الفعل الذي يبديه الانسان تجاه محنته ، وطبيعة الاستجابة التي يبديها نحو مصيره . وعلى سبيل المثال كانت شقيقة انتيجونا واعية كل الوعي للتناقض الذي دفع باختها الى نهايتها المفجعة غير انه لا يجوز لنا بأي حال من الاحوال ان نعتبر اسمينا شخصية مأساوية لأنها ظلت سلبية في استجابتها لهذا التناقض واستسلمت لمجرى الأحداث ، لذلك نراها تنصح بالتعقل والتحفظ وتثير الشكوك وتبدي المخاوف مما يبين ان معدنها لم يكن من معدن الابطال . والاعتبار نفسه ينطبق على الملائكة وسيماهم على وجوههم من اثر السجود . ومن الطريف ان نقارن بين موقف ابليس وموقف آدم من هذه الناحية . عصى آدم ربه ، شأنه في ذلك شأن ابليس ، ولو شاء ربك لآدم الا يعصى لما عصى ، ولما عاتبه الله على معصيته لم يبدِ آدم اي رد فعل ايجابي بل قال: « ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . اما البطل المأساوي الذي يصارع مصيره كما صارعه الملك أوديب فلا يقول : « اني ظلمت نفسي » ، لأنه يعلم حق العلم ان قدره المحتوم هو الذي ظلمه . اما ابليس فانه استجاب بصورة ايجابية لعتاب ربه فقـال : « بمـا اغويتني لازينن لهم في الأرض... » فنفى بذلك ان يكون قد ظلم نفسه او ان يكون مسؤولا عن مصيره ومآله. ومرة اخرى ينطبق على ابليس وصف ابي حيان التوحيدي للغريب : « لا عذر له فيعذر، ولا ذنب له فيغفر ، ولا عيب عنده فيستر » (« الاشارات الالهية » ص ٨١). اي خاف آدم من الاعتراف بهذه الحقيقة عندما عاتبه ربه بينما ناقشه ابليس وحاول ان يدافع عن فعله وان يبرر اختياره بالرغم عن علمه انه لا مفر له مما قدره الله عليه، مثله في ذلك كمثل أوديب وجوكاستا في محاولاتهما الافلات من مصيرهمـــا المشؤوم مع العلم بأن فشلهما كان

محتوما ومتوقعا . وحتى بعد أن نزلت اللعنة بابليس ظل ايجابيا في مواقفه وافعاله بدليل قوله : « لازينن لهم في الارض ولاغوينهم اجمعين ....». نرى اذاً ان ابليس هو المعدن الذي صنع منه ابطال الأعمال التراجيدية الكبرى في الادب العالمي وصورت شخصياتها المأساوية على صورته . ولا عجب اذاً ان نجد بأن هؤلاء الابطال كانوا اما على اتصال مباشر بالشيطان او كانوا يتصفون بصفات شيطانية واضحة . كما انه ليس من باب الصدفة ان تكون الشخصيات المأساوية الكبرى مستمدة في معظم الاحيان من بين جموع الشاذين والمخربين والعاصين والكافرين والجاحدين والقتلة ، لذلك وردت المحاكمات القانونية بكثرة في عدد كبير من الأعمال التراجيدية المشهورة ، ويكفينا ان نذكر على سبيل المثال اسكيلوس ، وكافكا ، و « الاخوة كارامازوف »، و« الغريب » لكامو . وبامكاننا ان ننظر الى الجدل الذي دار بين ابليس وربه على أنه نوع من المحاكمة العرفية السريعة حيث اتيحت لابليس فرصة ليدافع عن نفسه قبل ان يقضي الله امرا كان مفعولا .

رابعا ، من العسير على الباحث في طبيعة المأساة الا يتطرق الى موضوع عاطفة الكبرياء والى الدور الذي تلعبه في حياة الشخصيات المأساوية. ويكتسب موضوع الكبرياء اهمية خاصة بالنسبة لنا بسبب الرأي الذي يعزو رفض ابليس السجود الى دافع الكبرياء والفخار . قال الحق لابليس لما طرده من الجنة : « فاهبط منها فما يكون لك ان تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين » . ولندرك طبيعة كبرياء ابليس على حقيقته يجب ان نميز بين الكبرياء بمعنى العجرفة وبين « الكبرياء المأساوية » التي اتصفت بها الشخصيات المأساوية الكبرى ، علما بان هذا لا يمنع ان يكون البطل المأساوي متعجرفا . غير ان هذه الخصلة الذميمة تبقى عرضية وطارئة بالنسبة لبطولته ومأساته . فالتعجرف والكبرياء الدونكيشوتي لا يجلبان لصاحبهما سوى الشفقة والسخرية ، اما الكبرياء المأساوية فانها تفرض علينا موقفا جديا تجاه البطل فيه الكثير من الاعجاب والتقدير حتى لو كان موقفه مخالفا لكافة مبادئنا ومواقفنا الخاصة . لذلك كانت الكبرياء دوما من أهم الدوافع التي حركت الشخصيات المأساوية ، من الملك أوديب الى ايفان كارامازوف .

يتكون جوهر الكبرياء المأساوية من رفض البطل لان يبقى سلبيا في وجه ما يعتبره تحديا لواجبه ومنزلته وكرامته، حتى لو كان يعلم ان هذا التحدي هو جزء من مصيره وان كبرياءه ستنتهي به الى الدمار واليأس والموت . هكذا انتهى اوديب وهكذا انتهت انتيجونا وهكذا انتهى ابليس . اما آدم فلم يعرف هذا النوع من الكبرياء على الاطلاق ، ولو كان مقدرا له ان يكون شخصية مأساوية لما قال : « ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . نستنتج اذاً ان كبرياء ابليس لم تكن ناتجة عن

عجرفة فارغة ولا عن تطاول على معبوده ، بل كانت كبرياء مأساوية دفعته لان يلجأ الى الله من قضاء الله عليه . ولم يغير ابليس موقفه من ربه حتى بعد ان اصبح طريدا ولعينا وظل يعترف بسلطانه وقوته ويخاف منه ولا يقر لنفسه بمعبود سواه ، بدليل قوله تعالى : « كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء منك اني اخاف الله رب العالمين » ، وبدليل جواب ابليس عندما اقسم امام الله : « بعزتك لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين » (سورة ص ٨٣ ، ٨٤) . اي انه بيّن ان لا شيء اعز عنده من عزة ربه ، حتى بعد ان نزلت به اللعنة ، واستثنى عباده المخلصين من قسمه وكأنه يريد ان يبين حسن ثنائه وصدق ولائه لرب العالمين ، حتى بعد اللعنة والطرد . لم يكن ابليس غريبا فحسب بل كان في غربته غريبا ، على حد تعبير ابي حيان . يصف ابوالمغيث الحلاج موقف ابليس من ربه بعد ان نزلت عليه اللعنة الابدية في محادثته التي تخيلها بين موسى وابليس ، قال (في « الطواسين ») :

« قال موسى لابليس : « الآن تذكره ؟ » فاجاب ابليس : « يا موسى الفكرة لا تذكر ، انا مذكور وهو مذكور ، ذكره ذكري ، وذكري ذكره، هل يكون الذاكرون الا معا ؟ خدمتي الآن اصفى ، ووقتي اخلى، وذكري اجلى لاني كنت اخدمه في القدم لحظّي والآن اخدمه لحظّه ».

وضعه الحقيقي والنهائي في نظام الخليقة

عالجت في الصفحات السابقة مشكلة ابليس على مستويات مختلفة : بدأت بالنظرة التقليدية الشائعة ، ثم وصفت محنته ، ثم حددت النواحي المأساوية في شخصيته وموقفه . ومما لا ريب فيه انه كلما انتقلنا من احد هذه المستويات الثلاثة الى المستوى الذي يليه ، انكشفت لنا حقيقة ابليس بصورة افضل واعمق وتبينت لنا جوانب شخصيته المتعددة بجلاء اعظم . ولكن هذا لا يعني ان فهمنا لشخصية ابليس على مستوى المأساة يبين لنا حقيقته تامة وكاملة، اذ ان شخصيته ليست من انتاج الخيال الادبي والدرامي بقدر ما هي من انتاج الخيال الديني الصرف . لذلك تظل نظرتنا المأساوية الى ابليس ناقصة لا تكشف الا جانبا من حقيقته، ولن تكتمل الصورة ما لم نعالجها على المستوى الديني البحت الذي سيكشف لنا وضع ابليس الحقيقي والنهائي في نظام الخليقة . أما السبب الرئيسي الذي يدعوني الى هذا القول فهو تعذر قيام المأساة بمعناها النهائي والمطلق ضمن اطار الاديان السامية الثلاثة . يستحيل على الدين ان يقبل المأساة بصفتها النهائية ، لان العناية الالهية تحيط بالكون احاطة تامة وتسيره نحو الغايات القصوى التي اختارها الله له ؛ لذلك نجد ان الدين، بطبيعته، يدّعي تجاوز المأساة مهما كانت مفجعة ويدّعي حل جميع اشكالاتها ان لم يكن في الحياة الدنيا ، ففي الآخرة اذاً . وعلى سبيل المثال ، تتطلب النظرة المأساوية للاشياء ان يتكبد الابطال خسائر فادحة لا يمكن ان تعوّض على الاطلاق، يرمز

اليها في معظم الاحيان بالموت او اليأس التام، كما يطلب من الابطال ان يتحملوا بلاء وعذابا لم يستحقوهما ولم يريدوهما لانفسهم . اما الدين فلا يقبل بهذا المنطق المأساوي ويقول بان الخسائر التي يتكبدها الصالحون ستعوض عليهم في يوم مـا كما عوض الله أيوب على المصائب التي حلت به وكافأه على صبره الطويل . اما الخسائر التي يتكبدها الاشرار فانها عقاب عادل استحقوه بسبب آثامهم وأفعالهم الشريرة ، بدليل ان « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . حتى فاجعة الموت ، بالنسبة للدين ، ليست الا خسارة مؤقتة ترمز الى الانتقال من دار الفناء الى دار البقـاء . اي ان الدين لا يقبل المأساة الا بصورة مؤقتة ومرحلية ، ويتبع من ذلك انه لا بد لمأساة ابليس من ان تكون مأساة مؤقتة ستتلاشى في يوم من الايام .

بعد هذه الاشارة الى حدود النظرة المأساوية الى شخصية ابليس اريد ان اطرح السؤال التالي : لماذا امر ابليس بالسجود لآدم ؟ او بالاحرى لماذا وضعه الله في هذا المأزق ورماه في هذه المحنة ؟ والجواب هو : لانه اراد ان يمتحنه ويجربه كما امتحن من بعده أيوب وابراهيم وغيرهما من عباده الصالحين . والاشارة الى تجربة ابليس واضحة في قوله لربه : « بما أغويتني لأزينن لهم في الارض » و « فبما اغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم ... » اي انه سيغوي البشر كما اغواه الله وسيبتليهم كما ابتلاه. كان ابليس امام الملائكة وخطيب الكروبيين فاراد الله ان يبتليه فامره بالسجود لآدم ليرى مدى تمسكه بحقيقة التوحيد وتشبثه بدعواه في التقديس والتسبيح ، وبرهن ابليس عن استعداده لان يضحي بكل شيء في سبيل دعواه بمعبود واحد . يقول ابو المغيث الحلاج عن ابليس :

« هو الذي كان اعلمهم بالسجود ، واقربهم من الموجود ، وابذلهم للمجهود ، واوفاهم بالعهود، وادناهم من المعبود. سجدوا لآدم على المساعدة ، وابليس جحد السجود لمدّته الطويلة على المشاهدة » .

وكما ابتلى الله ابراهيم بأن طلب منه تضحية أعز ما عنده في سبيل وجهه تعالى، كذلك ابتلى ابليس بأن طلب اليه تضحية اعز ما لديه في سبيل معبوده ومحبوبه .

من خصائص التجربة الدينية انها تدخل الممتحن في محنة صعبة تحمّله مـا لا يطاق ، فتظهر حقيقته بكل جلاء وبدون اي تمويه او تزييف . والفكرة الرئيسية التي اريد ان ابينها هي ان ابليس اجتاز التجربة التي ابتلاه الله بها بنجاح تام ، وتتضح لنا هذه الحقيقة من الاعتبارات التالية : اولا ، نجح ابراهيم في التجربة لانـه علق مفعول واجباته الابوية والتزاماته العائلية والانسانية ليذعن للاوامر الالهية ويقوم بواجبه نحو ربه مهما كلفه الامر. كذلك نقول ان ابليس نجح في التجربة لانه علق مفعول واجبات الطاعة الجزئية ليذعن للمشيئة الالهيـة ويتمسك بواجبه المطلق في التوحيد والتقديس . ثانيا ، كما حول الامر الالهي ذبح اسحق من مجرد جريمة نكراء الى تضحية كبرى وعطاء ما بعده عطاء ، حول

تمسك ابليس بواجبه المطلق ، جحوده من مجرد عصيان الى اسمى تقديس توجه به مخلوق الى الذات الالهية. ثالثا، في الواقع جعل الامر الالهي من واجبات ابراهيم الابوية والتزاماته الانسانية ، واجبات ابتلاء لو اذعن لهـا لفشل في التجربة ؛ كذلك اصبحت واجبات ابليس الجزئية واجبات ابتلاء بالنسبة للواجب المطلق ، لو امتثل لها لفشل في التجربة . رابعا ، كما ان ابراهيم لم يسلك سلوك الانسان العادي تجاه واجباته الابوية وانمـا سلك سلوك الانبياء والاوليـاء فظهرت حقيقته من خلال التجربة ، لم يسلك ابليس سلوك الملائكة بالنسبة لواجباتـه الجزئية نحو الله بل سلك سلوك القديسين والصالحين والمقربين فبانت بذلك حقيقته بكل صفائها ونقائها . خامسا، اصبح من الجلي ان الابتلاء الالهي هو مصدر البلاء والعذاب واليأس الذي يمر به الممتحن . كانت رغبة ابراهيم الشديدة في انقاذ اسحق والاحتفاظ به مصدر عذابه وشقائه، ولولا هذه الرغبة العنيفة لما استحقت تجربته كل هذا الاهتمام لانه يكون قد قدم الى ربه شيئا لا يعز عليه الا قليلا ولا يشكل فقدانه بلاء عظيما . كذلك الامر بالنسبة لابليس . عندما جربه الله كان يشعر برغبة جامحة لان يذعن لامر السجود وعز عليه الى اقصى الحدود ان يضحي بهذه الرغبة في سبيل تمسكه بحقيقة التوحيد والا يكون قد ضحى بشيء لم يكن يرغب فيه اصلا الا رغبة طفيفة. كان ابليس وابراهيم يعلمان ان الله يجربهما وانه يطلب منهما اشق انواع التضحيات واغلاها على الاطلاق؛ ولكن ما من تضحية تصعب عليهما في سبيل وجهه تعالى ، لذلك رفض ابليس السجود ورفض ابراهيم روابط الابوة والانسانية .

من المقومات الاساسية للتجربة الدينية الناجحة ان يجهل الممتحن جهلا تاما النهاية التي ستسفر عنها تجربته ، ان كانت هذه النهاية لصالحه ام لم تكن . فلو شك ابراهيم لحظة واحدة انه سيذبح كبشا عوضا عن ابنه لما كانت محنته تجربة بل كانت مهزلة ؛ ولو توقع ايوب تعويضا لصبره على المصائب التي ابتلاه الله بهـا فتحمل العسر املا منه باليسر الذي سيليه لفقدت تجربته كل معانيها ومغازيها وفشل في الامتحان ؛ ولو دخل في خلد ابليس يومـا ان لعنته ليست ابدية او ان خاتمته النهائية ليست جهنم وبئس المصير لانقلبت محنته من تجربة مفعمة بالمأساة الى مسرحية هزلية. بعبارة اخرى، من شروط التجربة الناجحة ان يعتقد الممتحن اعتقادا راسخا لا يتطرق اليه الشك بان تجربته ستسفر عن خاتمة مفجعة ، وكم عندئذ ستكون فرحته عظيمة عندما يكتشف انها اسفرت عن نهاية سعيدة، كما حدث لابراهيم لما استعاد ولده، ولأيوب لما اعاد الله اليه امواله وذريته اضعافا مضاعفة. وبما ان الله كافأ ابراهيم وايوب على صبرهما ونجاحهما وتمسكهما بواجبهما المطلق نحوه ، يجوز لنا ان نستنتج بانه سيكافىء ابليس ايضا على نجاحه وتضحيته ويعوض عليه ما تكبده من

خسارة مفجعة وما عاناه من شقاء وبلاء وغربة. ولكن ، اذا كان هذا الاستنتاج صحيحا، لماذا لعنه الى يوم الدين ؟ الجواب بسيط : لعنه الى يوم الدين لأن التجربة بحد ذاتها تتطلب ذلك ، فلو اعتقد ابليس مثلا ان اللعنة التي نزلت به كانت مؤقتة فأمل بالعودة الى الجنة لفقدت تجربته مغزاها ومعناها ، ذلك لان تمسكه بحقيقة التوحيد ، بالرغم من يأسه التام من النجاة ، هو دليل اجتيازه التجربة بنجاح ، تماما كما كان يأس ابراهيم من انقاذ اسحق ووضعه المدية على عنقه الدليل القاطع على نجاحه في التجربة التي ابتلاه الله بهـا . بعبارة اخرى ، لا تبين اللعنة الابدية مصير ابليس الحقيقي بقدر مـا تشكل جزءا لا يتجزأ من امتحانه . اما مصيره الحقيقي فهو امر يجب ان يظل سرا مكتوما عنه الى ان يحين موعد افشائه ، تماما كما ظل مصير اسحق سرا مكتوما على ابراهيم حتى حـان الوقت المناسب لاعلانه . كما انه لا يجوز لابليس ان يبقى ملعونا الى الابد ، بعد اجتيازه التجربة بنجاح ، لان بقاءه على هذه الحال يشكل مأساة كبرى وحقيقية في الكون . ومنطق الدين ، كما مرّ معنا مرارا ، لا يسمح بذلك على الاطلاق .

وكما ان فهمنا لشخصية ابليس على مستوى المأساة لا يبين لنا حقيقته تامة وكاملة ، كذلك الامر بالنسبة لمعالجتنا لشخصيته على مستوى التجربة والابتلاء ، مع العلم بأن مستوى التجربة يقربنا الى حقيقته بصورة افضل واعمق من اي مستوى آخر ذكرناه . ولنصل الى معرفة حقيقة ابليس التامة ومنزلته الفعلية في الكون ، علينا تحديد علاقته الجوهرية المباشرة بالمشيئة الالهية . ومهما بحثت فاني لن اجد تعبيرا عن علاقـة ابليس الحقيقية بالمشيئة الالهية افضل من التعبير الذي ضمنه الامام المقدسي في الاسطر التالية حيث قال على لسان ابليس :

« خلقني كما شاء . وأوجدني لما شاء. واستعملني فيما شاء. وقدّر عليّ ما شاء . فلم اطق ان اشاء الا ما شاء. فما تجاوزت ما شاء . ولا فعلت غير ما شاء . ولو شاء لردّني الى ما شاء . وهداني بما شاء . ولكنه شاء . فكنت كما شاء .... فمن يكون على القضاء عوني . ومن يطق من القدر صوني . ولكن كلما يرضيه مني . رضيت به على رأسي وعيني . يا هذا ما حيلة من ناصيته في قبضة القهر . وقلبه بيد القدر . وامره راجع الى حكم القدم . وقد قضي الأمر وجفّ القلم » (« تفليس » ص ١٣) .

بعبارة اخرى ، كان ابليس صنيعة الارادة الالهية خاضعا لاحكامها ومنفذا لطلباتها . وعندمـا اختار العصيان والجحود فانه لم يختر سوى ما كان الله قد اختاره له منذ الازل . انه مستعمل فيما قدّره الله عليه واقع في قبضة قهره ، وبذلك بطل الامر والنهي بالنسبة اليه، مع العلم ان الحجة التي طرد على اساسها كانت تستند الى الامر والنهي. يستطرد الامام المقدسي في تبيان مكانة ابليس الحقيقية والغرض الالهي من طرده ، فيقول على لسان ابليس:

« يا هذا . اتظنّ اني اخطأت التدبير . ورددت التقدير . وغيرني التغيير . لا وعـلوّ عزته . وسنـا قدرته . لكنه خلق الحسن والقبيح . والمستقيم والصحيح . جمعا بين الشيء وضده . ليدل على كمال قدرتـه . فان الاشياء لا تعرف الا بالاضداد . فجعلني في الاول اعلـم المحاسن في الملأ الاعلى فابينها للاملاك . وازين

بها الافلاك . فكنت معلم التوحيد . فلما طالع اطفال المكتب امثلة توحيدهم . وحققوا حروف هجاء تقديسهم وتمجيدهم . نقلني من العالم الاعلى الى العالم الاسفل اعلمهم ما هو ضدّ ذلك فابين لهم القبائح وازينها لهم . فيّ عرف الحسن والقبيح . وميّز المستقيم والصحيح . فأنا في الارض والسماء . عريف العرفاء . معلم العلماء . فأنا معجز القدرة . ومشاهد حضرة الحكمة . فمن هو في الحضرة ادنى مني . ومن هو في الذكر اشهر مني » (« تفليس » ص ٢٢ – ٢٣) .

مأساته هذه ، لماذا ؟

سأكرس هذا القسم من بحثي لمحاولة ايجاد تعليل ديني مقبول لبعض المفارقات التي وردت معنا في الاقسام السابقة من هذا البحث وللاجابة على بعض الاسئلة الهامة التي ما تزال معلقة . وفي ما يلي تصنيف لاهم هذه المفارقات والاسئلة :

اولا ، عندما طرحت السؤال : لماذا امر ابليس بالسجود لآدم ، اجبت عليه بقولي : لان الله اراد ان يجربه ويبتليه كما جرب ابراهيم وايوب من بعده ؛ والسؤال الذي يبرز امامنا الآن هو : لماذا يبتلي الله ملائكته وعباده وهو العليم بكل ما يظهرون وما يبطنون؟ هل باستطاعتنا مثلا ان نحدد صفة من الصفات الالهية التي تدعو الله لان يجرّب عباده ؟ او بالاحرى الى اي صفة من صفات الذات الالهية يجب ان ننسب هذا الميل الى ابتلاء العباد؟

ثانيا ، عندما ميزنا بين المشيئة والامر في مطلع هذا البحث ذكرنا ان الله يأمر احيانا بشيء بينما يكون قد شاء تحقيق شيء آخر . ترى هل من تعليل ديني لهذه المفارقة في تصرفات الاله ؟

ثالثا، رأينا ان ابليس واقع في قبضة قهره خاضع خضوعا تاما لقدره واحكام مشيئته، شأنه في ذلك شأن بقية المخلوقات ، مما يبطل مفعول الامر والنهي عنه . فاذا كان هذا القول صحيحا فلماذا طرده من الجنة بحجة الامر والنهي ؟ بالاضافة الى ذلك، قدر الله منذ الازل من هم اصحاب الجنة ومن هم اصحاب النار . والادلة الدينية على ذلك عديدة اورد منها ، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ، الحديث القدسي التالي : « ان الله تعالى قبض قبضة فقال هذا الى الجنة برحمتي ولا ابالي ، وقبض قبضة فقال هذا الى النار ولا ابالي » (« الاتحافات السنية » ص ٦٨). ولكن بالرغم من ذلك انزل الله الكتب وارسل الرسل وشحنها بالامر والنهي وميز بين الحلال والحرام ؛ فما فائدة كل ذلك لمن كان مجبورا بحكمته ومستعملا فيما قدّره عليه ؟

رابعا ، اذا كان الله صانع الاشياء كلها ومقدر الخير والشر على عباده فلماذا اراد للناس ان يعتقدوا ان ابليس هو سبب الشر والمعصية ، ولماذا شاء تحميله اوزار اولئك الذين خلقهم للشر واجرى الشر على ايديهم ؟ هل باستطاعتنا ان نعلل هذه المفارقة بردها الى احدى الصفات الالهية المعروفة ؟

اعتقد ان الصفة الالهية التي نبحث عنها للاجابة على هذه الاسئلة هي صفة « المكر » . واليكم بعض الآيات القرآنية التي تبين طبيعة هذه الصفة :

« ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » (آل عمران ٥٤) .

« واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » (الانفال ٣٠) .

« واذا اذقنا الناس رحمة من بعد ضرّاء مستهم اذا لهم مكر في آياتنا قل الله اسرع مكرا ان رسلنا يكتبون ما تمكرون » (يونس ٢١) .

نجد ايضا ان بعض الآيات الاخرى تنسب الى الذات الالهية صفة مشابهة هي صفة « الاستهزاء » ، كما في قوله تعالى : « الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون » (البقرة ١٥) . واوردت بعض الآيات المعنى نفسه دون ذكر «المكر» الالهي وتخصيصه، كما في الآيات التالية :

« ولا يحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خير لانفسهم ، انما نملي لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين » (آل عمران ٧٨) .

« واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول»اي وجب عليها العذاب(الاسراء ٦١).

« ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ... » (النساء ١٤١).

نستخلص من تفسير الطبري للآيات المذكورة ما يلي: اولا، ينطوي المكر على الاستهزاء والخديعة (ج ١ ص ٣٠١ — ٣٠٢) ؛ ثانيا ، ينطوي المكر على اظهار شيء لشخص ما واضمار شيء آخر له ، لذلك « يظهر لهم من احكامه في الدنيا خلاف الذي لهم عنده في الآخرة (ج ١ ص ٣٠٣) ؛ ثالثا ، املاء الله للقوم ، يعني « ان يمد من عمرهم وسعادتهم وجاههم ، ليأخذهم في حال امنهم عند انفسهم بغتة » (ج ٧ ص ٤٢١ — ٤٢٣)؛ رابعا، لما قال الله : « واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول »، كان قد شاء تدمير القرية، ولكن لئلا يكون للعباد عليه حجّة في ما شاء لجأ الى«المكر» فامر مترفيها ان يفسقوا حتى يبدوا للجميع وكأن القرية استحقت ذلك التدمير . بينما الحقيقة غير ذلك .

ويشرح ابو طالب المكي فكرة « المكر » الالهي ويربطها بكل وضوح بابتلاء العباد فيقول في كتابه الشهير « قوت القلوب » ما يلي:

« وحدثنا عن ابي محمد سهل رحمه الله تعالى قال رأيت كأني ادخلت الجنة فلقيت فيها ثلثمائة نبيّ فسألتهم ما اخوف ما كنتم تخافون في الدنيا فقالوا لي سوء الخاتمة فالخاتمة هي من مكر الله تعالى الذي لا يوصف ولا يفطن له ولا عليه يوقف ولا نهاية لمكره لان مشيئته واحكامه لا غاية لها . ومن ذلك الخبر المشهور ان النبي صلى الله عليه وسلم وجبريل بكيا خوفا من الله تعالى فأوحى الله اليهما لم تبكيان وقد امنتكما ؟ فقالا ومن يأمن مكرك ؟ فلولا انهما علما ان مكره لا نهاية له لان حكمه لا غاية له لم يقولا ومن يأمن مكرك مع قوله قد امنتكما ولكان قد انتهى مكره بقوله ، ولكانا قد وقفا على آخر مكره ، ولكن خافا من بقية المكر الذي هو غيب عنهما ... فكأنهما خافا أن يكون قوله تعالى « قد امنتكما مكري » مكراً منه ايضاً ... يختبر بذلك حالهما ... كما اختبر خليله عليه السلام لما هوى به المنجنيق في الهواء فقال « حسبي الله ربي » فعارضه جبريل عليه السلام فقال الك حاجة قال لا، وفاء بقوله « حسبي الله»فصدّق القول بالفعل »(ج١ص٢٢٩).

بعد هذه المراجعة السريعة لفكرة « المكر » الالهي بامكاننا القول ان الله كان يبدي لابليس من الرضا غير ما شاء له من مصير واضمر له من قدر ومحنة وخاتمة. اي انه «مكر» به فامره ظاهرا بالسجود لآدم ولكنه شاء له ضمنا ان يعصي الامر حتى يكون له حجة على ابليس ليفعل به ما شاء وينفذ فيه قضاءه وقدره . لم يكن امر الابتلاء اذاً سوى اداة « المكر » الالهي، غايتها تنفيذ احكام المشيئة وتبريرها امام مخلوقاته فتصبح بذلك مقبولة في اعينهم فلا يكون لهم حجة عليه فيما يفعل بهم . وكما قال ابو طالب المكي ، لا غاية لمشيئته واحكامه ولكن « المكر » الالهي يتدخل ليجعل الامور تبدو للعباد على غير ما هي عليه،اي ليجعل المشيئة تبدو وكأن لها غايات ومبررات واسبابا. لذلك « مكر » الله بالملائكة فابدى لهم وكأن ابليس طرد لسبب وجيه هو العصيان ، ولولا هذا التدبير «الماكر» لاستعظمت الملائكة طرد سيدهم اكثر مما استعظمت قوله: «اني جاعل في الارض خليفة»،ولتعذر عليها تحمل احكام المشيئة الربانية ومواجهتها مباشرة دون توسط «المكر» بمبرراته وتفسيراته . لذلك طرده من الجنة بحجة الامر والنهي وليس بحجة نفاذ مشيئته فيه . كما انه يحسن للعباد ، من الناحية العملية ، ان يعتقدوا ان ابليس عصى امر ربه فطرده بسبب جحوده ، لانهم لو آمنوا عن حق بأن الله قدر عليه هذا المصير التعيس منذ الازل لما تحملت عقولهم هذه الحكمة ، فيفقدون صوابهم ويكفرون بعدالته ورحمته . لذلك ارى ان الامام المقدسي قد وقع على عين الصواب حين كتب ما يلي على لسان ابليس :

« ان زلّ احدهم قال انما استزلهم الشيطان. وان نسي احدهم قال فأنساه الشيطان . وان عمل احدهم قال هذا من عمل الشيطان . فانا حمّال اوزار المذنبين . وحمّال اثقال الخاطئين » (« تفليس » ص ٣٦) .

رأينا ان ابا طالب المكي ربط بين تجربة ابراهيم وبين « المكر » الالهي لانه عندما كان ابراهيم على وشك السقوط في النار توكل على الله توكلا تاما بقوله « حسبي الله ربي ». غير ان الله اراد اختبار تمسكه بهذا التوكل «فمكر»به بان ارسل له جبريل يعرض عليه المساعدة . اي كان ارسال جبريل اغواء له للجحود بتوكله على الله ، ولكنه رفض مساعدة الملك ونجح في التجربة ، فكانت النار بردا وسلاما على ابراهيم . بعبارة اخرى ، شاء الله منذ القدم لابراهيم ان يكون من اهل الجنة ومن انبيائه الصالحين ، فابتلاه حتى لا يكون لاحد من مخلوقاته حجة عليه فيما شاء لابراهيم من قدر ومصير . اما بالنسبة لابليس فقد شاء له الله منذ الازل ان يكون معلم التوحيد في الملأ الاعلى وان يكون معلم الشر والمعصية في العالم الادنى ، لذلك ابتلاه و «مكر» به حتى لا يكون لاحد عليه حجة فيما شاء لابليس من مصير تعيس .

ومع ان الله قرر منذ الازل من هم اصحاب الجنة ومن هم اصحاب النار، ارسل الرسل، وانزل الكتب ، وملأها بالامر والنهي ، وميز بين الحلال والحرام ليبدي لعباده ان سعادتهم وشقاوتهم تتوقفان على سلوكهم واختياراتهم في اتباع انبيائه والتمسك بشرائعه

وبذلك لا يكون لهم حجة عليه بالنسبة للمصير الذي كتبه عليهم : « انه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ». وهذا يعني ان ارسال الرسل، وانزال الكتب ، والتمييز بين الحلال والحرام ليست الا وسائط من « مكره » لتنفيذ احكام مشيئته في عباده ، شأنهم في ذلك شأن اهل القرية التي اراد الله تدميرها فامر مترفيها ففسقوا فيها ، وشأن الذين املى الله لهم خيرا لانفسهم ليزدادوا اثما فعذبهم عذابا مهينا . ومع ان ابليس كان مجبورا بحكمته لا حول له ولا قوة تجاه ربه ، لم ينفذ الله مشيئته فيه ويلعنه الا بعد ان «مكر» به بواسطة امر السجود. فظهر للجميع وكأن ابليس كان مسؤولا واستحق هذا العقاب .

رددنا مرارا ان الله هو صانع الخير والشر بدليل الحديث القدسي القائل :

« ان الله عز وجل يقول لا اله الا انا خلقت الخير وقدّرته فطوبى لمن خلقته للخير وخلقت الخير له واجريت الخير على يديه ، انا الله لا اله الا انا خلقت الشر وقدرته فويل لمن خلقته للشر وخلقت الشر له واجريت الشر على يديه » (« الاتحافات السنية » ص ٧١) .

ولكن من « مكره » اراد للعباد ان يعتقدوا غير ذلك وبأن ينسبوا النقيصة والقبيحة اما لانفسهم كما فعل آدم عندما قال: « ربنا ظلمنا انفسنا»، او الى تلبيس ابليس وغوايته، وان ينسبوا الخير والعدل والرحمة الى الله كما فعل آدم عندما قال : « وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . بالاضافة الى ذلك يحسن للعباد ، من الناحية العملية ، ان يعتقدوا بصورة عامة ان لله عدوا اسمه ابليس اللعين هو مصدر الشر والزلة والخطيئة، لانهم لو آمنوا عن حق ان الله هو مصدر بلائهم ومصائبهم التي تحيط بهم من كل جانب لما تحملت عقولهم هذه الحقيقة ، فيفقدون صوابهم ويكفرون به وبنعمته .

اذا كان باستطاعة آدم ان ينسب النقيصة الى نفسه او الى ابليس الذي اغواه، وان يطلب المغفرة والرحمة من ربه تمشيا مع توصية السيد المسيح : « اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، فالى من يجب ان ينسب ابليس عصيانه وجحوده ؟ او على حد قول ابليس : «فلئن كنت ابليس آدم فليت شعري من كان ابليسي ؟ » (« تفليس » ص ١٦) . وبطبيعة الحال احال ابليس جحوده الى مصدره الحقيقي والنهائي بقوله: « فبما اغويتني »، فاعطى بذلك لله ما لله ولم يعط لقيصر شيئا لان قيصر لا يملك شيئا على الاطلاق بالنسبة لابليس ولا حول له ولا قوة حتى ينسب له اي شيء . اذا استرسلنا في مقارنة موقف آدم بموقف ابليس نجد انه اذا كان ابليس اول بطل مأساوي في الكون كان آدم اول انتهازي، لانه رفض اتخاذ موقف محدد بين الامر والمشيئة رغبة منه بالنجاة كيفما تمت الامور، وهذا واضح في جوابه الذي رددناه مرات عديدة ؛ فلو صح « الامر » وكان آدم مسؤولا بالفعل عن عصيانه يكون قد اعترف بذنبه واعتذر من ربه واستغفره فتتاح له فرصة النجاة، ولو

صحت المشيئة وبذلك انتفت عنه مسؤولية العصيان يكون قد نجا بتسليم امره لله وتعلقه برحمته وغفرانه. بعبارة اخرى، اضاف آدم الفعل الى نفسه لما قال : «ربنا ظلمنا انفسنا» واخذ مسؤولية العصيان على عاتقه فكان « قدريا » ونفى بذلك ان يكون الله قد قدر عليه الظليمة وارادها له . ولما قال آدم : « ان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » تعلق بحبال الرحمانية المنوطة بعروة المشيئة فكان « جبريا » ونفى بذلك عن نفسه مسؤولية الظليمة لانه في هذه الحال يكون الله قد قرر منذ الازل فيما اذا كان سيرحم آدم ام سيعذبه فتكون الظليمة حجة الله على آدم ولا يكون لآدم حجة على ربه . نرى اذاً ان آدم حاول النجاة عن طريق القدرية وعن طريق الجبرية في آن واحد تحوطا منه ، اذ انه لم يكن على يقين ايهما ستصح في نهاية المطاف . امـا ابليس فقد اتخذ موقفا محددا بقوله : « فبما اغويتني » فلم يضف شيئا الى نفسه بل احال كل شيء الى مصدره الحقيقي، اي الى المشيئة الالهية، فكان بذلك جبريا مخلصا ولم يحاول الاستفادة من القدرية كما فعل آدم بغية السلامة والنجاة .

ورد معنا قول ابي طالب المكي : « ان الخاتمة هي من مكر الله تعالى الذي لا يوصف ولا يفطن له ولا عليه يوقف » . يعود بنا هذا القول الى الخاتمة النهائية التي توقعتها لابليس عندما قلت ان الله سيكافئه على نجاحه في التجربة التي ابتلاه بهـا ويعيده الى الجنة يوم تشرف هذه الدرامـا الكونية على الانتهاء . وسأقدم فيما يلي الاعتبارات والاسباب التي جعلتني استنتج ان نهاية ابليس ستكون نهاية سعيدة ومرضية :

اولا ، تمسك ابليس بحقيقة التوحيد تمسكا لا مثيل له ، ولذلك لا يمكن ان ينتهي في جهنم عملا بالحديث القدسي القائل : « قال الله عز وجل اني انا الله لا اله الا انا من اقر لي بالتوحيد دخل حصني ومن دخل حصني امن عذابي» (« الاتحافات السنية » ص ١٠).

ثانيا ، نجح ابليس في التجربـة التي ابتلاه الله بهـا وصبر على البلاء الذي حل به من جرائها ، وعليه فان مكافأته النهائية مضمونة بدليل الحديث القدسي القائل : « قال الله عز وجل اذا ابتليت عبدا من عبادي مؤمنا فحمدني وصبر على ما ابتليته فانه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته امه من الخطايا . ويقول الرب للحفظة اني قيدت عبدي هذا وابتليته فأجروا له ما كنتم تجرون له قبل ذلك من الاجر » (« الاتحافـات السنية » ص ٤) . ولولا هذه النهاية السعيدة المتوقعة لابليس لكانت خاتمته مأساة حقيقية ونهائية لا يمكن لمنطق الدين ان يقبل بوجودها ، كما مر معنا في السابق . وبمـا ان الخاتمة هي من « مكره » تعالى ، جعل الله ابراهيم وايوب يعتقدان ان خاتمة تجربتهم ستكون على نقيض ما كانت عليه فعلا وعلى عكس ما اراد لها الله من خاتمة . اي انه ابدى لهم من احكامه عند بداية التجربة غير ما اضمر لهم بالنسبة لخاتمتها. ينطبق هذا الاعتبار على ابليس اذ ان

« مكر » الله يتطلب ان يعتقد ابليس اعتقادا جازما بان خاتمته لن تكن الا خاتمة تعيسة ويائسة . نستنتج اذاً ان اللعنة التي نزلت بابليس لم تكن تعبيرا عن نهـايته الحقيقية التي شاءها الله له وانما كانت « مكرا » الهيا غايته تنفيذ احكام المشيئة فيه .

لنفترض جدلا اني على صواب في ماقلته عن حقيقة ابليس وعن خاتمته ومصيره النهائي، ماذا يستتبـع هذا الافتراض من نتائج بالنسبة لموقفنا الشخصي من ابليس ؟ اعتقد: اولا ، انـه يجب علينا ادخـال تعديل جذري على نظرتنا التقليدية الى ابليس واحداث تغيير جوهري في تصورنا لشخصيته ومكانته . ثانيا ، يجب ان نرد له اعتباره بصفته ملاكا يقوم بخدمة ربه بكل تفانٍ واخلاص وينفذ احكام مشيئته بكل دقة وعناية . واخيرا، يجب ان نكف عن كيل السباب والشتائم له وان نعفو عنه ونطلب له الصفح ونوصي الناس به خيرا بعد ان اعتبرناه ، زورا وبهتانا ، مسؤولا عن جميـع القبائح والنقائص . ولكن ارى من واجبي ان احذر بـان العفو عن ابليس وردّ الاعتبار له يستتبـع نتائج وعواقب هامة لا تخطر على بال احد في اول الامر . ان مثل هذه الخطوة تضطرنا لان نبدل الكثير من افكارنا الدينية ومعتقداتنا الموروثة حول امور الدنيا والآخرة . ولاعطي فكرة بسيطة عن خطورة العواقب التي قد يؤدي اليها العفو عن ابليس ، ساستشهد بقصة طريفة وجميلة كتبها توفيق الحكيم ، هي قصة « الشهيد ». يقول الحكيم فيهذه القصة ان ابليس قرر ذات يوم ان يتوب الى ربه وان يرجع عن اثمه ليكرس نفسه لعمل الخير والسير على الصراط المستقيم ، فذهب الى شيخ الازهر ليتوب على يديـه ويدخل بارشاده في الدين الحنيف ، فدار الحوار التالي بين ابليس وشيخ الازهر :

« – ايمان الشيطان ؟! عمل طيب ولكن ...

– ماذا ؟ اليس من حق الناس ان يدخلوا في دين الله افواجا ؟ اليس من آيات الله في كتابه الكريم : «فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا »؟ هأنذا اسبح بحمده واستغفره، واريد ان ادخل في دينه خالصا مخلصا، وان اسلم ويحسن اسلامي واكون نعم القدوة للمهتدين !

وتأمل شيخ الازهر العواقب : لو اسلم الشيطان ، فكيف يتلى القرآن ؟ هل يمضي الناس في قولهم : « اعوذ بالله من الشيطان الرجيم »؟ لو تقرر الغاء ذلك لاستتبـع الامر الغاء اكثر آيات القرآن ... فان لعن الشيطان والتحذير من عمله ورجسه ووسوسته لما يشغل من كتاب الله قدرا عظيما ... كيف يستطيـع شيخ الازهر ان يقبل اسلام الشيطان دون ان يمسّ بذلك كيان الاسلام كله ؟ !

رفع شيخ الازهر رأسه ونظر الى ابليس قائلا: انك جئتني في امر لا قبل لي به ... هذا شيء فوق سلطتي، واعلى من قدرتي ، ليس في يدي ما تطلب ... ولست الجهة التي تتجه اليها في هذا الشأن .

– الى من اتجه اذاً ؟ الستم رؤساء الدين ؟ كيف اصـل الى الله اذاً ؟ ... اليس يفعـل ذلـك كل من اراد الدنوّ من الله ؟

اطرق شيخ الازهر لحظة... وهرش لحيته ثم قال :

– نية طيبة ولا ريب ! ... ولكن... على الرغم من ذلك اصارحك ان اختصاصي هو اعلاء كلمةالاسلام ، والمحافظة على مجد الازهر ، وانه ليس من اختصاصي ان اضع يدي في يدك » .

اي ادرك شيخ الازهر ضرورة وجود ابليس لاعلاء شأن الدين والمحافظة على مؤسساته. ولو اختفى الشيطان لزال سبب وجوده وذهب مبرر استمراره . وكما يقول الحكيم نفسه في ذات القصة :

« كيف يمحى ابليس من الوجود دون ان تمحى كل تلك الصور والاساطير والمعاني والمغازي التي تعمر قلوب المؤمنين وتفجر خيالهم ؟ ... ما معنى « يوم الحساب » اذا محي الشر من الارض ؟ وهل يحاسب اتباع الشيطان الذين تبعوه قبل ايمانه ام تمحى سيئاتهم ما دامت توبة ابليس قد قبلت ؟ ... »

وبعد ان يئس ابليس من شيخ الازهر صعد الى السماء مباشرة وتكلم مع جبريل طالبا منه ان يتوسط له عند ربه لينال المغفرة وتقبل توبته. فدار الحوار التالي بين ابليس وجبريل:

« ـ نعم، ولكن زوالك من الارض يزيل الاركان ويزلزل الجدران ، ويضيع الملامح ويخلط القسمات، ويمحو الالوان ويهدم السمات . فلا معنى للفضيلة بغير وجود الرذيلة .... ولا للحق بغير البـــاطل .... ولا للطيب بغير الخبيث .... ولا للابيض بغير الاسود .... ولا للنور بغير الظـلام .... بـل ولا للخير بغير الشر .... بل ان الناس لا يرون نور الله الا من خلال ظلامك ... وجودك ضروري في الارض ما بقيت الارض مهبطا لتلك الصفات العليا التي اسبغها الله على بني الانسان !

ـ وجودي ضروري لوجود الخير ذاته ؟ ! نفسي المعتمة يجب ان تظل هكذا لتعكس نور الله ! سارضى بنصيبي الممقوت من اجل بقاء الخير ومن اجل صفاء الله ... ولكن... هل تظل النقمـة لاحقة بي واللعنة لاصقة باسمي على الرغم مما يسكن قلبي من حسن النية ونبيل الطوية ... ؟

ـ نعم يجب ان تظل ملعونا الى آخر الزمان ... اذا زالت اللعنة عنك زال كل شيء ...

وبكى ابليس ... وترك السماء مذعنا ... وهبط الارض مستسلما ... ولكن زفرة مكتومة انطلقت مـن صدره وهو يخترق الفضاء ... رددت صداها النجوم والاجرام في عين الوقت كأنهـــا اجتمعت كلها معهـا لتلفظ تلك الصرخة الدامية :

اني شهيد ! ... اني شهيد ! ... »